منطقة محررة

■ نجم والي

في تذكر ستريندبيرغ والتعلّم من غضبه

"إنه يرى نفسه بهيئة المتمردة لرجل بدائي، متوحش يقف عند حافة الغابة، يحدق من الأعلى بغبطة بالمدينة التي أضرم النار فيها"، بهذا الشكل وصفه الكاتب الألماني والسويدي الجنسية لاحقاً صاحب "أنشودة أنغولا" و"أستيتيك المقاومة" بيتر فايس. أوجست ستريندبيرغ الراقص مع الموت، كاره النساء، الغاضب على العالم جميعاً والهارب الدائم أولاً من نفسه، ستريندبيرغ الذي حمل المفارقة والتناقض معه ودحرجهما دائماً إلى الأعلى والأسفل مثل سيزيف، ستريندبيرغ الذي اُستقبلت أعماله وعُرضت على طول الأرض وعرضها والذي ظل رغم ذلك شخصاً عصيّاً على الفهم، هيئة بركانية متقدة تقف على قدمين. الصفات الأسطورية هذه ما تزال ترتبط بأعماله المسرحية المثيرة للجدل والغنية بالتنوع. خاصة وأن ستريندبيرغ لم يترك حقلاً أدبياً إلا ويطرقه، مثل يائس يبحث عن ومضة ضوء أو حجة تقنعه أنه فقط بهذا الشكل يمكنه أن يعيش، أن يظل على قيد الحياة، عزاء يقترب من الانتحار أحياناً، لكنه يغذي الكتابة دائماً بمصل الإبداع. ليس من الغريب إذن أن نجد فيه: الكاتب الروائي، القاص، المسرحي، الكوميدي ومايسترو الدراما، الشاعر وكاتب المقالات ساخرة، مخترع الأساطير والخرافات، بل أن نجد فيه الرسام ومصور الفتوغراف. كل ما له علاقة بالإبداع جربه ستريندبيرغ. قال عنه توماس مان، "عمله طقس منير بمحتواه". ٧٢ جزءاً هو عدد أعماله الكاملة التي بدأت الأكاديمية السويدية طبعها عام ١٩٨١، لكي لا ننسى توجهاته الأخرى، من غير المهم ما حوته من تناقض. فهو الصوفي، الدعائي، الطاوباوي وكاتب الرسائل الخسران الذي لم يعجز عن أن يلحق بنفسه كل ما له علاقة بأسطرة شخصيته وجعلها غامضة أو محيرة للمحيطين به.

وبقدر ما تقلب ستريندبيرغ بتحولاته ومزاجه الإشكالي، بقدر ما تقلبت حياته أيضاً. فستريندبيرغ المولود في ٢٢ كانون الثاني ١٨٤٩ في ستوكهولم افتقد أباه مفتش السفن وعمره أربع سنوات، وما حصل له بعد ذلك هو محطات انقطاع، تغيير الوجهة دائماً، محاولة بدحرجة الصخرة إلى غير ما شاء لها سيزيف: هكذا نعرف أنه لم يكمل دراسته للغات التي بدأها، فيما وصدت مدرسة التمثيل أبوابها بوجهه، فشله الأكاديمي فرضه عليه من أجل العيش والتنقل في وظائفه. من معلم خاص في مرة إلى مساعد تلغراف مرة أخرى، لمحرر صحيفة وموظف مكتبة، قبل السقوط في متاهة المحكمات القضائية وقبل أن يُسلم نفسه إلى ترحال دائم، متنقلاً من بلد إلى آخر: عدم الاستقرار والتنقل دمغا حياته. باريس كانت محطته الأولى، ثم سويسرا، بعدها ألمانيا والدانمارك قبل الإقامة في برلين. ١٨٨٩ كان أشد أعوام الفاقة في حياته، لدرجة أنه فكر بالعمل نادلاً أو خداماً. لكنه وبعد ثلاث زيجات فاشلة انتهت بعدوانية قرر العيش نهائياً في ستوكهولم. الطير يعود إلى عشه، ليس للبحث عن قبر بل لكي ينشب مخالبه. هذه المرة يبدأ في ١٩١٠ بنشر سلسلة مقالات يهاجم فيها بعنف البورجوازية السويدية، مقالات يوقفها فقط موته في ١٤ مايس ١٩١٢ نتيجة قرحة بالمعدة.

مع زميله في المواطنة وهجومه الحاد على هنريك أبسن المدافع عن النساء هما محطة من محطات الغضب تلك. كأن ستريندبيرغ ولكي يكتب المسرحية أو المقال، الرواية أو القصيدة لا يحتاج إلا للغضب وقوداً يشعل به نار الإبداع. لكن ألم يبدأ طريق الحداثة بهذا الشكل؟ عالم ستريندبيرغ قريب من زمانه بشكل مثير، بكل ما حواه من تهويمات وطوباوية. النصف الثاني من القرن التاسع عشر كان زمن التمردات والثورات.

أغلب أعمال ستريندبيرغ مترجمة إلى اللغات العالمية. وهذا ما يحمل الصحافة والأوساط الثقافية العالمية على الاحتفاء به في هذه الأيام ليس بسبب تذكره فقط، بل لكي يبث الروح في كتبه الخالدة لأجيال قراءة جدد. الاحتفاء بستريندبيرغ وإحياء ذكراه في الإثنين الماضي (١٤ مايس ٢٠١٢) في الغرب وفي ألمانيا بالتحديد جعلني لا أتذكر الكاتب هذا الذي قرأناه بحماسة ولا الحمى "الوجودية" التي صاحبتني بعد قراءة ثلاثيته "الطريق إلى دمشق" وحسب، بل جعلتني أتذكر تلك الجملة التي قالها عبقري آخر أسمه فرانتز كافكا وهو يصف ستريندبيرغ: "ستريندبيرغ المخيف. الغضب هذا الذي لا يمكن رؤيته إلا في قبضة ملاكمة". الجملة "المخيفة" تلك لكافكا، هي أيضاً المفتاح الذي يعلمنا الدرس الأول بالكتابة. مئة عام مرت على وفاة ستريندبيرغ "المخيف"، وما تركه لنا كنز كبير: خزين غضب دائم علينا ألا نكف عن جعله في ما نكتب وقوداً يشعل نار الإبداع!

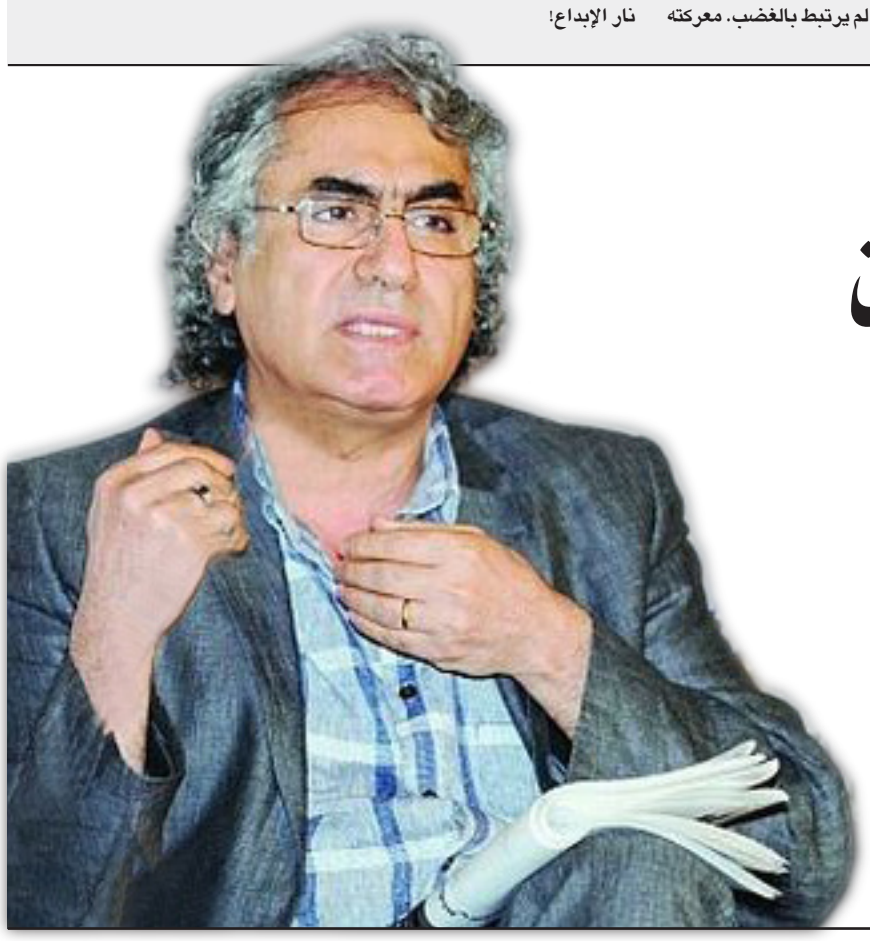

بالسّلام وحده تزهو الجبال

قِداس على سَفح جبل سِفين

(٢-٢)

تقع كويسنجق، أو كوى، وهناك مَن يلفظها قوينجق، بين أربيل والسليمانية، وبعد عبور دوكان وجبل هيبة سلطان الشاهق بمسافة تبدأ معالم كويسنجق بالظهور، لم أجد معنى اسم مدينة تعرض للتأويلات والتفسيرات مثل اسم كويسنجق، ومَن يريد الإطلاع ينظر في كتاب جمال بابان "أصول أسماء المدن والمواقع العراقية". ونحن نمرُّ في وسط المدينة سألت صاحبي في الرِّحلة: أليس قرية أو محلة هرموته أو هرموطه تابعة لكويسنجق؟ قال: إنها قريبة جداً من هنا، أتريد الذّهاب إليها؟ قلت: لو يمكن ذلك. فاستدار قاطعاً وسط المدينة ولاحت لافتة مكتوب عليها بالكردية: هرموته.

قال: أين تريد هل تكتفي بالمرور بالمحلة؟ قلت: نتجه إلى الكنيسة، فأنا أعلم أنها محلة كلدانية مسيحية عامة، فلا بد من وجود دَير أو كنيسة. ونحن نتحادث وإذا يطل الصليب من أعلى منارات الكنيسة، نزلت سائلاً الحارس: هل لي الدُّخول، أو مقابلة القس؟ قال: لا، فالوقت انتهى والقس مشغول! أخذت ألح على الحارس، ولم اسمع منه إلا الاعتذار.

رشيد الخيُّون

ما هي إلا لحظات ويأتي شاب مستفسراً عن طلبي، فقلت: أريد مقابلة القَس! واسمي فلان وليس لي سوى الإطلاع على هذا المكان الضارب في القِدم! فقال: انتظرني لحظة. أتى مصطحباً القَس. فشرحت له ماذا أريد. أخذني إلى داخل الكنيسة، فرأيت شابات وشبان يتدربون على أداء قداس عيد الفصح، باللغة السِّريانية.

هالني المشهد، أنه كيف لهؤلاء ظلوا معتصمين كل هذا الدَّهر في هذا المكان، ولعشرات القرون ما زالوا ينطقون تلك اللغة، على الرَّغم من أن لا محيط ولا الاختلاط ولا قلة النُّفوس مشجعة على الاستمرار. شرقت أفكاري وغربت ونزلت دمعة من عيني، تأثراً بهذا الاعتصام بالمكان والعض على الذكريات والتاريخ بالنواجذ، وتذكرت هند بنت النُّعمان، التي ظلت مجاورة للإطلال وهي معتصمة في ديرها بالحيرة. يروى إنها سألت خالد بن الوليد (ت ٢٣ هـ) يوم دخل الحيرة فاتحاً بالقول: «هؤلاء النصارى الذين في أيديكم تحفظونهم. فقال: هذا مالي حاجة غير هذه، أنا ساكنة في دير بنيته ملاصق هذه الأعظم البالية من أهلي حتى ألحق بهم" (الحموي، معجم البلدان).

خرجت من الكنيسة وأشرت بيدي للفتية والفتيات، وهم أثر من قرون خلت، يقرأون سطوراً ما زالت غائبة عنا ونعدها من الطلاسم، فيها ما فيها من آثار التَّاريخ والعلوم، تلك التي اعتنى في ترجمتها الخليفة عبد الله المأمون (ت ٢١٨ هـ)، تناسلوا في هذا المكان ولا يرغبون في هجره. قال لي القس دنحا، وهو قس القرية وكنيسة مريم العذراء منذ سنوات خلت: بالقرب من هرموته هناك دير قديم إذا رغبت في زيارته فتفضل. بعد أن اطمأن لي ولمن معي ركب معنا في سيارة واحدة، وأخذنا نطوف في الدَّير ، وقال: إن تاريخه يعود إلى الخمسمائة أو أكثر ميلادية، لكنه رُمم عدة مرات، وتعرض للخراب بسبب تقلب الأحوال بين فترات الكراهية والتسامح، فمع الأولى يكون العنف والخراب، ومع الثانية يكون السَّلام والعمران، وها هو عمرانه الأخير تم في فترة السلم الأخير، مع الأماني بدوامها.

على سفح سفين

كنت على موعد مع الأب دَنحا بشقلاوة، يوم الثلاثاء العاشر من نيسان ٢٠١٢، وهو القداس الكبير هناك، والذي يُقيمه عادة، في العراء المطران بشار وردة. قبله تكون الزيارة السنوية لضريح أو مقام ربان بويه في أعلى قمة جبل سفين، البالغة حوالي كيلومتر ونصف الكيلو. كانت المسافة ما بين أربيل وشقلاوة لا تزيد على السَّاعة والنصف السَّاعة، وكان الأب دنحا على التلفون معي، وبعد السؤال اهتدينا إلى سفح الجبل مكان انطلاق الزائرين، وساحة القداس في أصل الجبل.

جانب من معرض أربيل للكتاب

كان الصعود مغامرة، لم أخضها إلا بصعود جبل النُّور الشاهق بمكة، حيث غار حِراء مع أنه مدرج حتى النهاية على خلاف جبل سفين. أنظر إلى المتسلقين من أصل الجبل يبدون صغاراً كالطيور، ولا يبان سوى ألوان ألبستهم، هممت بالصعود، خطوات وتوقفت متفكراً هل استمر أم لا! قال لي الذي يصاحبني: لا يمكن لنا الصعود إنه مرتفع جداً، فنكتفي بهذا المقدار، حيث لا درجات للصعود وإنما صخور وأحجار متناثرة! قلت له: أريد الصعود، وأنت انتظرني هنا. فصار أمام الأمر الواقع ومجبر على الصعود لأنه مكلف بمصاحبتي، تملل وحاول ثنيي عن المغامرة، على الرغم أن عمره أقل من نصف عمري، فانطلقنا ورأيت وجناته احمرتا، وصعدنا حتى ذروة الجبل ومكان المقام هناك، وأنا في الطريق اسأل المتسلقين والآخذين قسطاً من الراحة، ماذا كان يفعل الربان هناك؟ وكيف وصل!

كلما ارتفعت كلما زادت المخاوف من السقوط، فالجبل عار، إذا زلقت القدم قد تهوى إلى الوادي السحيق، وعليك في ذلك المرتقى أن تكف عن النَّظر إلى الوادي. وصلنا إلى صخرة النذور أو هكذا اسميتها، وهي النازلة من المقام، ينزلق عليها طالبو المراد، وعليهم النِّية فقط. ولما سألت إحدى الفتيات: هل أنت متأكدة أن هذه الصخرة تجلب الحَظ وتعطيك مرادك؟ قالت: في هذا المكان عليك أن لا تشك في كرامة ربان بويه، وأتت لي بأمثلة أنه كيف لصقت قدم أحدهم ولم تتحرك لأنه شك في داخل نفسه، وآخر تعرض لسوء ولم يخلص منه حتى أتوا به إلى هنا وطلب المعذرة. هناك مسلمون يأتون لطلب المراد، والزيارة ليست محكومة في هذا اليوم، إنما هذا يوم الزيارة الجماعية.

سألت فتاة أخرى ماذا نويت قالت: هذا سر لا أبيحه، فلو بحته فسد المراد عليَّ ولم يُلبى. ثم صاح مجموعة من الفتية: تعال وانزلق على الصخرة، واطلب ما تريد من المراد! يكون الانزلاق على البطن، وأن يسحبك الآخرون من الأسفل. قلت: ليس لدي ما أطلب، فطلباتكم وأنتم شبان تُلبى، لكن طلبات الكهول قد لا تلبى، فهي عصية. ضحكوا وأخذوا يقصون لي قصصاً كثيرة دارت حول هذه الصخرة.

كانت سعادتي أن أصل إلى ذروة الجبل، وأن أرى ما قرأت عنه بأم عيني، عند النزول اعترضتني إحدى المحطات الفضائية، قالوا: نرى هيئتك غريبة إلى حد ما لذا رغبنا في تصريح منك، فادلي لنا بما رأيت. فتحدثت لهم عن الوجود المسيحي بالعراق، وكيف كانت البداية بحدياب، حيث أربيل قديماً ، وكيف أن المسيحية انتشرت بالعراق قبل غيره من البلدان عن طريق الآباء الأولين، ومن العراق وصلت إلى الخليج والهند، وأني رأيت آثار كنيسة في جزيرة صير بني ياس، في عرض الخليج العربي، بعيداً عن أبو ظبي بأكثر من مئتي كيلو متر. وأن كل اسم مدينة أو قرية يبدأ بحرف الباء فهي إشارة إلى سريانية أو آرامية الاسم: بغداد، بعقوبا، باصيدا، باعذرى، باعشيقا، بحزاني، برطلة وغيرها من أسماء الأمكنة العراقية العريقة.

النزول من قمة الجبل أسهل لكن ربَّما يكون أكثر خطورة، فلا يؤمن السقوط أو الانزلاق، نزلنا مباشرة إلى مكان القداس، ولما حاولت الدخول إلى الساحة مُنعت، لأن الساحة كان ملأى بالمصلين، فجلست بعيداً، لكنها لحظة ويأتي شاب نادى علي بالاسم، قائلاً: تفضل واجلسني في المقدمة. فرأيت الأب دنحا توما خلف المطران يؤدي القداس، ثم نزل هو والقساوسة لتناول المصلين الخبز المقدس.

وعدني القس دنحا بأن يأتي لي بكتب عن تاريخ الكنيسة الشَّرقية، وهو اسم يختلف عن الكنيسة الغربية، فقد حصل انشقاق قاده القديس نسطور، في القرن الخامس الميلادي، فصارت كنيسة العراق على مذهبه، ثم عادت بعد أكثر من ألف عام إلى الكاثوليكية، وكنيسة أربيل على المذهب الكاثوليكي، على الرَّغم من وجود الكنيسة التي تدين بمبدأ نسطور، ويسمون بالنساطرة، لكن لا خلافات على ما يبدو بين الجماعتين، إنما جعلوا الماضي المذهبي خلف ظهورهم.

كان المطران بشار وردة، ويسمونه بسيدنا، وهذا اللقب مشترك بين أكثر الديانات، أنه يشار للمرجع الديني الكبير بسيدنا، يقف أمام القساوسة، وأغلبهم من الشَّباب، ويرتدون اللباس الديني الأبيض، ثم بعد إداء القداس والأناشيد الدينية بالسريانية، وشيء منها بالعربية، اعتمر المطران على رأسه ما يشبه عمامة البابا الطولية، وهي كالتَّاج، وينزل محفوفاً محاطاً بالقساوسة ومستقبلاً من قِبل الجمهور، كان الغالب من المَسيحيين يقبلون يده تبركاً. تقدمت للسلام عليه، فرحب بي باسمي مشيداً بما كتبته عن التآخي بين فئات المجتمع العراقي. ولوجود الزِّحام حوله ودّعته منصرفاً.

مع البير أبونا

قال لي الأب دنحا لو زرت مكتبة عينكاوة، ففيها كتاب الأب حبي "تاريخ الكنيسة الشرقية"، وقال: سأوصي صاحب المكتبة كي يدلك الطريق. كان صباح عصر يوم الأربعاء ١١ نيسان يوم مغادرتي أربيل، فاغتنمت ساعات الصباح منطلقاً إلى عينكاوة حيث المكتبة دار الرَّجاء، وصاحبها سمير داود رشو، نظرت في المكتبة وإذا بكتاب البير أبونا "تاريخ الكنيسة" بثلاثة أجزاء، كنت قد حصلت على هذا الكتاب العام ٢٠٠٠ من كنيسة قرية قرب الشيخان بأربيل، وكانت النسخة مصورة، فأثرت على اقتناء الأصل.

سألت سمير رشو عن الأب البير أبونا، أما زال حياً؟ قال: نعم وهو يُقيم الآن بعينكاوة في المطرانية، تريد رؤيته. قلت: نعم وبكل شوق. أتصل رشو بالمطرانية وإذا بصوت الأب البير أبونا: تفضل أهلاً وسهلاً. ما هي إلا دقائق وصرت بالمطرانية أمام شاهد على العصور بمؤلفاته التاريخية والكنسية، وهو من ولادات القوش بالموصل. درس الفَرنسية لست أعوام بمدرسة دينية بالموصل، واتقنها من دون أن يرى باريس، وترجم عنها وعَن السريانية كتباً عديدة.

وجدت البير أبونا يُقيم في غرفة بسيطة، سرير نومه الخشبي الصغير، وطاولة للكتابة، قال: ماذا أضيّفك، لدي "كليجة"، فقام وهو يربو على الثمانين بأربعة أعوام. سألته عن عمله أما زال منتجاً؟! قال: هل حصلت على آخر كتبي. قلت ما عنوانه؟ قال: "الدِّيارات في العراق"! قلت: لا. فقال: ليست لدي نسخ إضافية، ولأنك على سفر اليوم فلابد أن أعطيك نسختي التي معي. تأخر بكتابة الإهداء على الرَّغم أنه كلمتين لا أكثر، فالقلم أخذ لا يطاوعه. علمت أن اجراءات أتخذت للمحافظة على طبيعة مدينة عينكاوة الاجتماعية، كونها محلة مسيحية، وأن فيها مدارس تدرس بالسِّريانية، وهناك حريات دينية مريحة جداً، والسبب عدم وجود سطوة دينية سياسية، فعلاماتها التشدد ضد المرأة أولاً وحصر بقية الديانات بعذر المحافظة على الشعور العام، وكأن أهل هذه الديانات، وهم الأُصلاء في البلاد لا شعور لهم، عليهم مجاراة شعور الآخرين ولا تجارى مشاعرهم.

معرض كتاب أربيل

كان معرض كتاب أربيل قد افتتح في اليوم الثَّاني من نيسان، وهو في دورته السَّابعة، يؤمل أن يكون قد تخطى الوقتية إلى الدائمية، كبقية المعارض التي تقام في عواصم العالم، فمعرض بغداد المؤمل قد حُجب هذا العام لاضطراب في التنظيم واختلاف في الرؤى، بين وزارة التجارة ووزارة الثقافة ومؤسسات أخر، مع قيام معارض بالنَّجف والبصرة والموصل، ومع قلة المشاركين من دور النشر إلا أنها ظاهرة طيبة، ومهما كان التلكؤ فقد يُحمد القائمون عليها.

لكن المطلوب هو كيفية الحفاظ على الاستمرارية وأن تصل المعارض دورُ نشر من مختلف البلدان، وأن تتجاوز في الأعوام القادمة ما تعرض له معرض الكتاب ببغداد، مع تاريخ الوراقة المعروفة فيها بغداد منذ القدم، يوم كانت عاصمة دولية للثَّقافة، والأمل لا يبرحنا في عودة معرض الكتاب إلى بغداد بعد تجاوز الخلافات، وتكليف القادرين على ضمان إقامته واستمراريته، وهذا ليس بالمستحيل.

معرض أربيل الذي تشرف على إقامته دار "المدى"، منذ دورته الأولى العام ٢٠٠٦، وكنت قد حضرت الدورتين منه الأُولى والثَّانية (٢٠٠٧) وهذه السَّابعة (٢٠١٢)، شكل جسرا للتواصل بين الحرف العربي والقارئ الكردي، وكان التنظيم متقناً إلى درجة أني لم أجد اختلافاً في الخدمات وما تيسير شؤون العارضين عنه في معارض الدول الأُخرى. هناك تعاون بين وزارة الثقافة ودار المدى، وثمرة هذا التعاون كانت وراء نجاح المعرض.

أغلب الوقت كنت أقضيه داخل المعرض، فهو المكان المناسب للقاء مع الأصدقاء، وأن المرور على دور الوراقة لا تنتهي بجولة أو جولتين، أو طلب توقيع الكتب، فكتبي كافة نزلت في دار مدارك. لاحظت أن هناك سوء فهم بين أن يكون معرض الكتاب عرضاً للكتاب أو نشاطاً سياسياً أو دينياً. فما حصل أن عددا من المؤسسات كانت تعرض صوراً شَخصية لرموز سياسيين ودينيين، بالمقابل ليس هناك دار بغدادية عرضت كتبها أو دائرة تابعة لوزارة الثقافة العراقية، ولما سألت هذا السؤال قيل لي: ليس هناك من دور منافسة، وهذا أمر محزن حقاً، أن تكون بغداد قد خلت من دار نشر لها اعتبارها، تأتي بالكتاب الذي يصعب عليك الحصول عليه خارج العراق، فقانون منع تصدير الكتب أو اخراجها من العراق ما زال قائماً منذ فترة الحصار، وهذا يمكن أن يكون أحد العوائق أمام فتح دور نشر كتبها تحبس داخل العراق فقط.

يمكن العراق بمحافظاته وإقليمه أن يكون مركزاً لنشر الكتاب، فما لوحظ أنه ليس هناك منع على كتاب من الكتب، ما عدا الكتب التي حولها إشكالات من سرقة أو اعتداء على حقوق نشر، وبهذه الروحية تتطور المعارض وتجلب الناشرين، مع علمنا أن إقامة المعارض ليست لبيع الكتاب إنما بقيام علاقات بين أسواق الوراقة، الناشرين والمؤلفين، وهي فرصة للاحتفال بثمرات الأوراق والأقلام.

كلما ارتفعت كلما زادت المخاوف من السقوط، فالجبل عار، إذا زلقت القدم قد تهوى إلى الوادي السحيق، وعليك في ذلك المرتقى أن تكف عن النَّظر إلى الوادي.

جبل سفين